تحت الجدار

Dr. N. ABDUL JABBAR
Dept. of. Arabic

كان البرد قارسا والجو مطربا، والشمس تكاد أن تغرق فى أعماق البحر، والليل يبسط بردة واسعة سوداء على محيط الأرض، والطيور قد لجأت إلى أغصان الأشجار الخضراء، ومالت إلى أيدى النيام والأحلام ٠ الطرق والشوارع خالية من أصحاب المدن وجوارى الليل ٠ وفى هدوء هذه الليلة الهائلة المخيفة جرأت فتاة أن تخرج من دارها ٠٠لم تخف هذه الحالة الشنيعة لأنها كانت تخاف الأخطار من أهلها أكثر ٠

وهى تسكن فى دارها المتربة بين المواشي و الأفراخ، تنام وتلاعب وتأكل معها في الكدر والروث والوسخ ٠ وكانت عارية إلا قليل، وثيابها ممزقة، وجسمها نحيل إلا أن وجهها الا مع تحت سحابة سوداء، إذا زالت عنها حينا حجبتها أحيانا ٠

قبل سنتين كانت لها أم، وهي أودعت ابنتها إلى أبيها عند فراقها ؛ حزن الأب حرنا شديدا فى موت زوجتها، وكان يحبها كثيرا ويعاشرها معاشرة شريفة كزوج مخلص، قد كان يجاهد شديدا في طريق عيشهم ويكتسب زرقه ورزق انبته وعائلته بالجد والعمل ولم سكدر عيشهم شيء وكان محبوبا عند أصحابه وخلطائه وأربابه إدخر جزءا من دخله لحاجات الطوارئ ٠

ولم يعد إلي بيته مساء ضعيف القامة ، تعبانا إلا أنه حمل هدايا ضغيرة وحلاوي رخصية إلي انبته وزوجه؛ حتي مرضت الزوجة ذات ييوم ٠ ولم يقصر شيئا من تسئونها، عالجها علاجا حسب مقدرته، بذل جميع ما كان عنده من مال وصادة، واستشار بأكبر طبيب فى المدينة، ولم تعد صحتها ولكن كانت تدنو رويدا رويدا من آخر ساعات حباتها ٠ بكى كثيرا وبكت الصبية أكثرك ولكن البكاء والعويل لم ينفعها ٠ ولما اعترفت بحالتها وأيقتن بنهايتها استدعت زوجها وأوصته خيرا إلي ابنتها العزيزة ولم تكن تتم ألفاظهما المخنوقة الخافتة حتى تعبت وأحست وجع الموت ولم تلفظ شيئا بعد، وأنفاسها محدودة وفرت زوجها ٠

بقيت الحبية وحيدة فى البيت نهارا إذ خرج والدها إلى العملك ولكن سرعان مالقيته فى المساء حتى جرت إليه وتعلقت بيديه تحس في جيبه بالحلاوى أو العلب الصغيرة فنسيت حزنها ٠ أخلصت الصبية إلي أبييها وأطاعت أوامرت، وأحبها الوالد أكثر من حبه إلي نفسه

لا بد للوالد من أن يستمع إلي نصحة صديقه ، وتفكر كثيرا في أمر خطير ٠

كيف يستطيع أن ينسي زوجته التي

كانت ق أخلصت إليه طول حياتها، وهل يستطيع أن يربي ابنته تربية صالحة بلاعون امرأة لتقوم بشئونها إذا شبت وبلغت سن الزواج؛ وهل يمكن أن يبدأ حياة جديدة بعد أن يلغ الأمر هذا الحد؛ وهل الزوجة الجديدة تستطيع أن تقوم مقام الأم لابنتها، هكذا أزعجته وأهمته آلاف من الأسئلة التى وهذا حتي غلب عليه صديقه بزعيمة ثابتة للزواج الثانى ٠

واختارله الصديق عروسة من أقاربه، وهي متزوجه ومطلقه لسوء معاملتها إلي زوجها الأول ٠ مضي شهر بلا تعقد ولا شيئ غريب يذكر والصبية سارة في كنف أمها الجديدة، وهي تساعدها وترخدمها فى شئون البيت ؛ إذا كان الوالد يطلب زرقهم ويسد حوائج حياتهم في الخارج من الصباح إلى المساء ٠ إذا عاد من العمل صب على ابنته الشفقة والحب والرضا ٠ وحمد الله لهذه السعادة والفضل ٠

علي مر الأيام ظهرت علي وجه المرأة غرابة ولم تسمح البثت أن تقضي مع والدها كثيرا ؛ ولكن هيي تسامره وتساهره وتبيت معه ٠ وهي تكره حديث الصبية مع والدها وتلومها فى أتفه شيء ، وتبهتها وتجبرها بالعمل الشاق الذي لا تحتمله الصبية وهكذا ظلم العالم في عينيها ، وأعجبها والدها أنه يشاهد علي هذا السوء كئيبا واجما ٠ لما انقضى عام جاء تضو جديد إلي هذه الأسرة ؛ ولم يضفق الأب على بيتها العزيزة بعد، ولم تجد بدا إلا أن تفر من هذه البيئة الشنيعة المظلمة طلبا للمودة والملجا ٠

حنت الفقتاة إلى أمها وأحبت أن تلقاها في مخبئها الهاددئ المنعم ٠ ولكن كيف ؟ من الذي يأخذها إلى أمها ؟ وأين مخبأها ؟ في أي طريق وفى أية جهة ؟

أسرعت في الطرق والشوارع والناس يطلقون عليها الأنظار ويبسطون إليها الأسماع ليكشفوا علي قصص سرية ملونة حول حياتها النافهة العجيبة ٠ وكانوا بمرحون ويرقصون داخل ديارهم ؛ ويرشفون من كؤوسهم حينا وشفوات نسائهم أحيانا، ويطعمون من آنية غالية ويطعمون أزواجهم وأحبائهم من أيديهم الناعمة ٠ تضر الفتاة شمة اللحوم المشوية والأطعمة المتنوعة الذيذة تسدت الضجيجة والغوغاء من الديار المترفة ٠

تاخر الليل وشدا الظلام والبرد واسود الجو أمام الفتاة الحقيرة ضعفت قوائمها ووهنت قوتها واصفرت أنظارها لشدة الجوع والعطش والبرد، ولم تستطع أن تستمر السير؛ ومالت إلى جدار علي زاوية مهجورة مهملة ولم تر شيئا أمامها إلى الظلام ولا تسمع صوتا إلا الضجيج ٠ لما انفضت ساعة حتي رأت الفتاة فى المنام أن أمها تطير وتنزل إليها من علياء السماء تدعوها باسمها فى صوت جميل خافت وتقبل على جبهتها بشفتيها الناعمتين ٠ ودعت أمها وطلبت منها أن تأخذها إلى مخبئها الهادئ البعيد ٠ فمدت إليها الأم يديها .....